المدن العربية في القرن الأول الهجري

الدكتور عادل نجم عبود
استاذ مساعد

این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است

این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است

كان لابد للعرب خلال حروب التحرير من قواعد ينطلقون منها ويشتون فيها فكانت مدن البصرة والكوفة والفسطاط والقيروان وواسط أهم تلك القواعد التي شيدت في القرن الاول الهجرى ولهذه المدن اهمية خاصة اذ انها تمثل تطور العمارة العربية خلال ذلك القرن الذي توطدت فيه الاسس المميزة للعمارة والفنون الاسلامية التي سادت جميع الاقطار التي دخلت ضمن الدولة الاسلامية مع بعض التحويرات التي تفرضها الظروف المناخية والبيئة الجغرافية اضافة إلى مؤثرات الفنون المحلية . لذا يجدر بنا دراسة هذه المدن من حيث موقعها، وتخطيطها للعام، موضع المسجد الجامع ودار الامارة من المدينة، المباني وموضع الاسواق :

البصرة :-

ان الروايات التاريخية المتعلقة بالبصرة توضح الغرض من بنائها والشروط التي توخاها العرب في اختيار موقعها . فلما نزل عتبة بن غزوان الخريبة كتب إلى عمر بن الخطاب يعلمه نزوله اياها وان لابد للمسلمين من منزل يشتون به اذا شتوا ويسكنون فيه اذا انصرفوا من غزوهم فكتب اليه «اجمع اصحابك في موضع واحد وليكن قريبا من الماء والرعي واكتب إلي بصفته» فكتب اليه اني وجدت ارضا كثيرة القصب في طرف البر إلى الريف ودونها مناقع ماء فيها قصباء فكتب اليه عمر ان انزلها الناس فانزلهم اياها فبنوا مساكن بالقصب وبنى عتبة مسجدا من قصب وذلك في سنة اربع عشرة وبنى عتبة دار الامارة دون المسجد فكانوا اذا غزوا نزعوا ذلك القصب وحزموه ووضعوه حتى يرجعوا من الغزو فاذا رجعوا اعادوا بناءه فلم تزل الحال كذلك ثم ان الناس اختطوا وبنوا المنازل (١) . وقيل انه حين ارسل عمر أ بن الخطاب عتبة بن غزوان إلى البصرة كان بها قحطبة بن قتادة السدوسي يغير بتلك الناحية كما كان يغير المثنى بناحية الحيرة (٢). ولعل من اسباب بناء البصرة ماروى من ان عمرا قال لعتبة «قد فتح الله عزوجل على اخوانكم الحيرة وما حولها وقتل عظيماً من عظمائها ولست آمن ان يمدهم اخوانهم على اخوانكم وتقاتلهم » (٣) :

---

(١) البلاذري محمد بن يحيى « فتوح البلدان » (القاهرة ١٩٥٩) ص ٣٤١ – ٣٤٢ .

(٢) ابن الاثير عزالدين« الكامل في التاريخ» ، (القاهرة ١٣٠١هـ) جـ٢ ص ٢٣٩ .

(٣) الطبري ، محمد بن جرير « تاريخ الرسل والملوك» ، (القاهرة ١٩٦٢) جـ٣ ص٤٩٩ – ٤٩١ .

اختلف المؤرخون حول تأريخ بناء البصرة. فيحددها الطبري عام ١٤هـ / ٦٣٥ م (١) وكذلك البلاذري وقيل ان البصرة مصرت سنة ست عشرة (٢) في حين يذكر اليعقوبي أنها اختطت سنة سبع عشرة (٣) في حين هناك اجماع على تحديد تاريخ بناء الكوفة بعام ١٧ هـ/ ٦٣٨م لعل هذا الاختلاف يرجع إلى ان البصرة كانت اول الامر معسكرا مؤقتا لم تستخدم به المواد البنائية حتى عهد امارة أبي موسى الاشعري الذي بنى المسجد و دار الامارة بلبن وطين وسقفها بالعشب (٤) وقيل ان محجر بن الادرع اختط مسجد البصرة ولم يبنه فكان يصلي فيه غير مبني فبناه عتبة بقصب ثم بناه ابو موسى الاشعري وبنى بعده (٥) :

اما عن خطط البصرة وتوزيع القبائل بها.فلم تكن بالوضوح الذي نشهده في خطط الكوفة . الا أن الطبري يذكر ان البصرة اختطت على نحو من خطط الكوفة (٦) فكان الاهتمام بمسجدها اولا ثم بدار الامارة التي بنيت بناحيته الشمالية . وحين ولي زيادة ابن ابيه البصرة بنى المسجد وزاد فيه ويفهم من البلاذري ان زياد بن ابيه حين تولى امارة البصرة بنى المسجد ووسعه وجعل بيت الصلاة فيه خمسة اساكيب (٧) قائمة على سواري اقتطعت من جبل الاهواز وكان اول من استحدث للمسجد مقصورة وبنى له منارة من حجارة وفرش ارضيته بالحصى ونقل دار الامارة من الناحية الشمالية للمسجد إلى ناحيته الجنوبية وبناها بلبن وطين . ذلك ان الامام حين كان يأتي للصلاة كان يتخطى الناس فحول دار الامارة إلى قبلة المسجد فكان الامام يخرج من داره من خلال باب في حائط القبلة وحين

---

(١) نفس المصدر ، ج٣ ص٤٩٩ .

(٢) ابن الاثير ، ج٢ ص ٢٤٩ .

(٣) اليعقوبي، احمد بن واضح « كتاب البلدان» (ليدن ١٨٩١) ص٣٢٣ .

(٤) البلاذري ، ص٣٤٢ .

(٥) نفس المصدر ، ص ٣٤٤ .

(٦) الطبري، ج٣ ص ٤٩٣ .

(٧) الاسكوب هو المنطقة المحصورة بين صفين من الاعمدة تسير بموازاة جدار القبلة .

تولى الحجاج العراق اراد ان يزيل اسم زياد من البصرة بهدمه دار الامارة وبنائها بالجص والآجر فقيل له انما تزيد اسمه ثباتا وتوكدا فهدمها وتركها حتى ولي سليمان بن عبد الملك فاستعمل صالح بن عبد الرحمن على خراج العراق فاعاد بناءها بالجص والآجر (١) : ولم يزل المسجد ودار الامارة على وضعه حتى عهد خلافة المهدي الذي اشترى بعض الدور المجاورة للمسجد وزادها في المسجد ثم امر هارون الرشيد أن يضاف دار الامارة إلى المسجد واتخذ الولاة العباسيون بعد ذلك دار امارتهم في المربد (٢) :

وقد رافق تطور المسجد تطورا كبيرا لمدينة البصرة خلال القرن الاول الهجرى فبعد ان كان عدد مؤسسوها ثلثمائة (٣) وقيل ثمانمائة (٤) شخصا ، حتى ان احدهم حين رزق بغلام نحر مايكفي لاطعام جميع سكانها (٥)، تنامت حتى اصبحت اكبر مدن العراق فعرفت بقبة الاسلام فقد بلغ عدد مقاتليها في عهد زياد بن ابيه ثمانين الفا وعيالهم مائه وعشرين الفا هذا عدا مانزح اليها من سكان المدن القديمة مثل الحيرة والمدائن (٦) فحين ارسل عتبة رسوله إلى عمر يعلمه لفتح الابله سأله عمر كيف الناس ؟ فقال انهالت عليهم الدنيا فهم يهيلون الذهب والفضة فرغب الناس في البصرة فاتوها (٧) ؛

ويبدو انه لم تكن هناك حاجة إلى سور يحيط بالمدينة لعدة اسباب منها ان موقف العرب كان هجوميا في تلك المناطق وان المدينة كانت بتوسع سريع ومستمر لم تقف خلال فترة تأسيسها عند حد لتسور عنده :

والبصرة التي اذن الخليفة عمر بن الخطاب لسكانها بالبناء باللبن والطين على ان لايزيد مافي البيت عن ثلاث غرف (٨) اصبحت مسرحا لتنافس اثرياء العرب على بناء القصور الفخمة وقد كان هناك نظام لتقسيم شوارعها واراضيها . فقد كان عرض قطائعها ستون

---

(١) البلاذري ص ٣٤٤ .
(٢) البلاذري ص ٣٤٤ .
(٢) الطبري، ج٣ ص ٥٩٤ .
(٤) البلاذري، ص ٣٤٥ .
(٥) نفس المصدر ، ص ٣٤٢ .
(٦) القزويني، زكريا بن محمد بن محمود «آثار البلاد واخبار العباد» (بيروت ١٩٦٠) ص٤٥٣.
(٧) ابن الاثير ج٢ ص ٢٤٠ .
(٨) ابن الاثير ج٢ ص ٢٦٠ .

ذراعا وشوارعها الرئيسية اربعون ذراعا والوسطى عشرون ذراعا والصغيرة سبعة اذرع(١) ؛ ولم يكن هناك اهتماما بالاسواق ومواضعها اول الامر بسبب الطبيعة العسكرية للمدينة اذ جعل سعدا الاسواق في الكوفة على شبه المساجد من سبق إلى مقعد فهو له حتى يقدم منه إلى بيته (٢) ولاتستبعد ان تكون البصرة كذلك مادامت قد اختطت على نحو من خطط الكوفة (٣) ؛

وكانت ارض البصرة حين اختطها العرب « سبخة لايجف نداها ولا ينبت مرعاها :: لازرع فيها ولا ضرع » (٤) وشهدت بعد تعميرها حركة من مشاريع الري بحيث اصبح فيها في القرن الثالث الهجرى من النخيل مايعدل كل الذهب على وجه الارض (٥) فكان بين عشرات الانهار التي تأخذ من دجلة لتروي الاراضي المحيطة بها وأول هذه الانهار توسيع نهر الابلة في عهد ابي موسى الاشعرى ونهر الفيض الذي حفر في عهد زياد ونهر معقل ثم حفرت انهار اخرى في العهد الاموى منها نهر دبيس ونهر الاساورة وام حبيب وحرب ويزيدان وابن عميرة ونافذ وطلحتان وحميدة وخيرتان ومره وبشار وفيروز والعلا وذراع وحبيب وابي بكره وغيرها من الانهار الكثيرة (٦).

وشهدت البصرة والكوفة وغيرها من مدن العراق حركة عمرانية شاملة ومتطورة خلال عهد زياد بن ابيه الذي عين واليا على البصرة سنة ٤٥هـ / ٦٦٥م حتى اعتبر البعض هذا العهد عهد تقدم العمارة الاسلامية في العراق (٧) فبالاضافة إلى اعادة بناء مسجدى البصرة والكوفة ودور الامارة فيهما اقيمت مجموعة كبيرة من القصور الفخمة خلال عهد زياد وبعده فقد شيدت في البصرة من القصور دار نافع ودار معقل بن يسار ودار خالد بن طليق الخزاعي ودار أبي يعقوب الخطابي ودار طارق بن ابي بكرة ودار زياد بن عثمان وقصر زياد

---

(١) نفس المصدر والصفحة .
(٢) نفس المصدر والصفحة .
(٣) الطبري ج٣ ص ٥٩٣ .
(٤) البلاذري ص ٣٤٩ .
(٥) القزويني ص ٣٠٩ .
(٦) عن أنهار البصرة راجع البلاذري ص ٣٥١ — ٣٦٥ .
(٧) K.A.C. CRESWELL , A Short Account of Early Muslim Architecture , (Harmondsworth, 1958) P. 12 .

المعروف بقصر النواهق وقصر زربى وقصر عطية الانصارى وغيرها (١) .

ويعد انشاء الحمامات من متطلبات الحياة المدنية المتطورة وتستوجب وجودها تعاليم الدين الاسلامي ، فكان في البصرة بعد انشائها ثلاث حمامات أولها حمام عبدالله بن عثمان ابن ابي العاص الثقفي والثاني حمام قيل مولى زياد والثالث حمام مسلم بن ابي بكرة وقيل ان غلة احدها في اليوم الف درهم وطعاما كثيرا وبقيت البصرة فترة بهذه الحمامات ثم استؤذن ببناء عشرة حمامات حسبما يذكر البلاذرى (٢) .

الكوفة : —

الكوفة والبصرة ، مدينتان توأمان شيدتا خلال فترة واحدة ولاسباب واحدة ومرتا بظروف متشابهة إلى حد بعيد :

قيل ان عمر بن الخطاب حين راى تغير الوان وفد من العرب ارسله سعد اليه كتب إلى سعد يسأله عن سبب ذلك فكتب اليه سعد «ان الذي غيرهم وخومة البلاد وان العرب لايوافقها الا ماوافق ابلها من البلدان »فكتب اليه عمر أن ابعث سليمان وحذيفة رائدين فليرتادا منزلا بريا بحريا ليست بيني وبينكم فيه بحر ولا جسر فارسلهما سعد ..... فاتيا موقع الكوفة فاعجبتهما البقعة ثم رجعا بالخبر إلى سعد .... ارتحل سعد من المدائن إلى الكوفة في المحرم سنة ١٧ ونزلها (٣) .

يذكر البلاذري انه حين انتهى سعد بن ابي وقاص إلى موضع مسجد الكوفة أمر رجلا فعلابسهم قبل مهب القبلة فاعلم على موقعه ثم علا بسهم آخر فقبل مهب الشمال واعلم على موقعه ثم علا بسهم قبل مهب الجنوب واعلم على موقعه ثم علا بسهم قبل مهب الصبا فاعلم على موقعه ثم وضع مسجدها ودار امارتها في مقام العالي وما حوله (٤).

لقد فسرت هذه العملية باكثر مما تتحمل فقد اعتبرت عملية بسيطة لتحديد اركان المسجد(٥) في حين انها لم تكن سوى محاولة لتحديد الارض التي يجب ان تترك ليشيد فوقها المسجد ودار الامارة كما هو واضح من الرواية اذ ان تشييد المسجد وبشكل خاص تحديد قبلته كانت

---

(١) عن القصور والدور في البصرة آنذاك راجع البلاذري ص ٣٤٦ — ٣٥٠

(٢) نفس المصدر ص ٣٤٨ — ٣٤٩

(٣) الطبري جـ٤ ص ٤١ وابن الاثير جـ٢ ص ٢٥٩

(٤) البلاذري ص ٢٧٥

(٥) كوزويل ، المختصر ص ٩

تستند إلى اهل الخبرة فقد اسند تخطيط مسجد الكوفة وكذلك المدينة إلى ابي الهياج بن مالك واسند تخطيط البصرة ومسجدها إلى عاصم بن دلف ابو الحرباء (١) وقد عرفت البقعة التي حددت بالسهم « بالصحن » فكان الصحن على حاله زمان عمر كله لاتطمع فيه القبائل ، ليست فيه الا المسجد والقصر (٢).

ولم يكن للمسجد الذي بناه سعد بن ابي وقاص جداريحده بل حدد بخندق لئلا يقتحمه أحد ببنيان وغطى بيت الصلاة بظلة بدون مجنبات ولا مواخير وكان طول بيت الصلاة مائتي ذراع يقوم سقفها على اساطين من رخام (٣) وقد وصف احدهم المسجد آنذاك قائلا : « كنت اجلس في المسجد الاعظم قبل ان يبنيه زياد وليست له مجنبات ولا مواخير فارى منه دير هند وباب الجسر » (٤).

وبنى سعد دار امارته بحيال المسجد بينهما طريق طوله مائتي ذراع (٥) وان تلك الدار هي التي ارسل عمر بن الخطاب رسولا لاحراق بابها بكتاب يذكر فيه « بلغني انك بنيت قصراً اتخذته حصناً ويسمى قصر سعد وجعلت بينك وبين الناس بابا .... انزل منه منزلا مما يلي بيوت الاموال واغلقه ولا تجعل على القصر بابا تمنع الناس من دخوله وتفنيهم به عن حقوقهم» (٦).

واتخذت القبائل العربية منازلها واستوطنت الاراضي المحيطة بالصحن ولم يكن توزيعهم اعتباطا بل سبقه تخطيط هندسي لشوارع المدينة وازقتها . فقد جعلت الشوارع الرئيسية اربعون ذراعاً وما يليها ثلاثون ذراعاً وما بين ذلك عشرون والازقة سبعة اذرع وكان عرض كل من القطائع ستون ذراعاً (٧) .

---

(١) ابن الاثير ، ج٢ ص ٢٦٠ والطبري جـ٤ ص ٤٤

(٢) الطبري جـ٤ ص ٤٥

(٣) نفس المصدر ص٤٤ — ٤٥

(٤) الطبري، جـ٤ ص٤٥

(٥) نفس المصدر ص ٤٥

(٦) نفس المصدر ص٤٤

(٧) نفس المصدر ص ٤٤

يفهم من الطبري ان الشوارع الرئيسية كانت تتفرع من المسجد الجامع اذ يقول « وجعل هذه الطرقات من وراء الصحن» (١) ويقول أيضاً: «ونهج في الرحبة من الصحن خمسة مناهج وفي قبلته اربعة مناهج وفي شرقيه ثلاثة مناهج وفي غربيه ثلاثة مناهج وعلّمها» ويبدو ان هناك مجموعة من القبائل انزلت حول الصحن مثل سليم وثقيف وبجيلة وتيم اللات وتغلب وبني اسد وكندة والازد والانصار وقرينه وتميم ومحارب وعامر وجديله واخلاط « فكان هؤلاء الذين يلون الصحن وسائر الناس بين ذلك ومن وراء ذلك .... فهذه مناهجها العظمى وبنوا مناهج دونها تحاذى هذه ثم تلاقيها وأخر تتبعها وهي دونها في الذرع والمحال من ورائها وفيما بينها» (٢).

كان نمو الكوفة سريعاً منذ نشوئها فقد «اختطت على مائة الف مقاتل» (٣) ومن الطبيعي ان ينتقل اليها عرب المدن القديمة في العراق فلما اختطت الكوفة واذن للناس بالبناء نقل الناس ابوابها من المدائن إلى الكوفة فعلقوها على مابنوا وأوطنوا الكوفة (٤) اما الاسواق كما لاحظنا في البصرة لم يكن هناك اهتماما كبيرا بها حيث قال عمر: « الاسواق على سنة المساجد ، من سبق إلى مقعد فهو له حتى يقوم منه إلى بيته او يفرغ من بيعه» (٥) ويورد اليعقوبي وصفاً ادق للاسواق آنذلك فيقول: «وجعلت السوق من القصر والمسجد إلى دار الوليد إلى القلائين إلى دور ثقيف واشجع ويليها ظلال بوارى إلى ايام خالد بن عبدالله القسري فأنه بنى الأسواق وجعل لأهل كل بيعة دارا وطاقا وجعل غلاتها للجند » . (٦) اذ انه بنى حوانيت وجعل سقوفها أزاجاً معقودة بالاجر والجص»(٧) توسعت الكوفة خلال القرن الاول الهجري / السابع الميلادي وتطورت تطورا كبيرا اذ بنى العمال فيها فضيقوا رحابها وافنيتها (٨) وصرنا نسمع فيها عن الكثير من القصور والحمامات والاسواق والدور الشهيرة فبالاضافة إلى دار الامارة كان هناك قصر الطمار وكان في

---

(١) نفس المصدر ص ٤٥
(٢) نفس المصدر والصفحة
(٣) ابن الاثير ج٣ ص ١٦ والطبري ج٤ ص١٦٥
(٤) الطبري ج٤ ص ٥١
(٥) نفس المصدر ص ٤٦
(٦) اليعقوبي ، ص ٣١١
(٧) البلاذري ، ص ٢٨٤
(٨) نفس المصدر ص ٢٧٥

ذلك القصر قبة يتزلها الامراء (١) وكان هناك سوق يوسف وحمام أعين وحمام عمر ودار حكيم وقصر مقاتل ودار عيسى بن موسى ودار حجير وحوانيت الصيارفة ودار ابن ارطأة ودار المقطع وقصر العدسيين(٢)وغيرها اما عن المسجد فقد وسعه المغيرة بن شعبة ثم اعادزياد بن ابيه بناءه فاقامه على اساطين اقتطعت من جبال الاهواز ووصلت بكتل الرصاص والحديد من خلال ثقوب تتوسطها ورفع السقف مقدار ثلاثين ذراعاً اى ١٥ مترا تقريباً واقام للمسجد مجنبات ومؤخر (٣) ولا يختلف وضع هذا المسجد عن وضعه ايام زيارة ابن جبير له في القرن السادس الهجرى اذ يقول : «وهو جامع كبير من الجانب القبلي منه خمسة ابلطة وفي سائر الجوانب بلاطان وهذه البلاطات على اعمدة من السوارى الموضوعة من صم الحجارة المنحوتة قطعة على قطعة مفرغة بالرصاص ولا قصي عليها ... وهي في نهاية الطول متصلة بسقف المسجد فتحار العيون في تفاوت ارتفاعها فما ارى في الارض مسجدا اطول اعمدة منه ولا أعلى سقفاً » (٤).

الفسطاط : —

بعد الانتهاء من تحرير كل من العراق وسوريا توجهت الجيوش العربية غربا لتحرير مصر وشمال افريقيا وشرقاً نحو فارس والهند والصين فكان تحرير مصر فيما رواه المؤرخون بين سنتي ١٩ و ٢٥هـ (٥) (٦٤٠و٦٤٦) وبالامكان تحديد فتح مصر على وجه الدقة في الثامن عشر من شهر ربيع الثاني سنة عشرين للهجرة (٦ نيسان ٦٤١م) (٦) لم يتخذ العرب من الاسكندرية وهي اكبر مدن مصر وافخمها قاعدة لحكمهم لاسباب عديدة ربما كان من اهم اسبابها اتباع مبدأ عمر بن الخطاب بعدم جعل بحر او نهر بين المعسكرات الجديدة وبين الجزيرة العربية ، فحين سأل عمرو بن العاص اصحابه عن المكان الذى يريدون نزوله بعد فتح الاسكندرية قالوا « نرجع إلى فسطاطك لتكون على ماء وصحراء»(٧)فقد قيل ان المدينة سميت بالفسطاط لانها كانت موضع فسطاط عمرو بن العاص ،

---

(١) القزويني ص ٢٥١

(٢) عن القصور والدور والمنشآت العامة ،راجع البلاذري ص ٢٨٠ — ٢٨٤

(٣) الطبري ص ٤٦ والبلاذري ص ٢٧٥

(٤) ابن جبير ، محمد بن أحمد ، «رحلة ابن جبير » (القاهرة ط١) ص ١٦٣

(٥) البلاذري ، ص٢١٤ ومابعدها ، اليعقوبي « البلدان» ص٣٩٣ المقريزي ، تقي الدين ابي العباس أحمد بن علي : «الخطط المقريزية» ، (طبعة بغداد) جـ١ ص٢٨٨ ومابعدها القزويني جـ١ ص٢٣٦

(٦) احمد فكري ، مساجد القاهرة ومدارسها ، المدخل ، (القاهرة ، ١٩٦١) ص ٥٥

(٧) القزويني جـ١ ص ٢٢٦

اى خيمته ، وكان قد تركه مضروباً هناك قبل توجهه لفتح الاسكندرية (١) وكان اختطاطا مدينة الفسطاط سنة ٢٠هـ/٦٤١م حين اختط الجامع المعروف بالجامع العتيق أو جامع عمرو بن العاص واختطت قبائل العرب من حوله (٢) فقد انضمت القبائل بعضها إلى بعض وتنافسوا في المواضع فولى عمرو على الخطط معاوية بن خديج النجيبي وشريك ابن سمي القطيفي وعمرو بن قحزم الخولاني وحيويل بن ناشرة المغافرى وكانوا هم الذين أنزلوا الناس وفصلوا بين القبائل (٣). ويبدو ان اسلوب توطين القبائل في الفسطاط كان على غرار ذلك الذى اتبع في الكوفة والبصرة . فكانت هناك خطة أهل الراية ، ومهره ، وتجيب ، وخطط لخم ، والنفيف وخطط اهل الظاهرة وغامق والصدف ومذحج وغطيف وعلان ويحصب ورعين وذى القلاع والمغافر وخطة سبأ والرحبة وبني وائل والقبض وغيرها من الخطط وكانت كل من هذه الخطط تحتوى على قبيلة واحدة او اكثر من القبائل العربية (٤).

ورغم عدم وجود رواية واضحة حول تشييد العرب للاسواق ومباني الخدمات العامة الاخرى حين بنائهم للفسطاط الا انه يفهم من خلال ماأورده المقريزى ان كان هناك اسواقاً ومباني للخدمات لابد وان الحاجة اليها كانت قد املت وجودها في القرن الاولى الهجرى . فقد كان هناك اسواق النحاسين ، والوزانين ، وسوق الحمام وسوق بربر ، وسوق وردان ، وسوق المعارج وكان فيها من الحمامات الكثير منها حمام النار وحمام شمول وحمام طن ، كما انشئت فيها القصور الفخمة فبالاضافة إلى دار الاماره كانت هناك دار عبد العزيز بن مروان ودار الذهب وغيرها . وقيل انه كان بالفسطاط الف ومائة وسبعون حماما (٥) :

أما جامع عمرو بن العاص ودار امارته (٦) فقد كلف جماعة من صحابة الرسول لوضع قبلة المسجد وتحديد حدوده فكان اول الامر صغيرا لايزيد طوله عن خمسين

---

(١) المقريزي جـ١ ص ٢٩٦ واحمد فكري ص ٥٧

(٢) المقريزي جـ١ ص ٢٨٦ وص ٢٩٧

(٣) نفس المصدر جـ١ ص ٢٩٧

(٤) حول التفاصيل عن هذه الخطط راجع المقريزي جـ١ ص ٢٩٦ — ٢٩٩

(٥) المقريزي ، جـ ٢ ص ٨٠

( ) اعتمد في تفاصيل تاريخ الجامع منذ نشوئه وحتى العصر المملوكي على ماأورده المقريزي جـ١ ص ٢٤٦ — ٢٥٦

ذراعا وعرضه عن ثلاثين ذراعا واحيط بطريق من جميع جهاته وكان له ستة ابواب، بابان في كل من جوانبه عدا الجانب القبلي ويبدو ان المسجد قد سقف برمته بسقف واطيء اذ لم يكن له صحن :

وكان يحاذي الجامع من جانبه الشرقي وبنفس طوله دار عمرو بن العاص يفصل بينهما شارع عرضه سبعة اذرع :

وأول من زاد في الجامع مسلمة بن مخلد الانصاري سنة ٥٣هـ / ٦٧٣م فزاد فيه من شرقيه مما يلي دار عمرو بن العاص وزاد فيه من شماليه وكساه بالجص وزخرف سقوفه وقيل انه بنى للجامع اربع صوامع في اركانه الاربعة :

ثم هدم المسجد واعيد بناؤه على يد عبد العزيز بن مروان سنة ٧٩هـ /٦٩٨م فزاد فيه من ناحيته الشمالية والغربية بل وقيل انه زاد فيه من جوانبه جميعها وفي عام ٨٩هـ أمر عبدالله ابن عبد الملك بن مروان برفع سقف المسجد الجامع وفي عام ٩٢ هـ / ٧١١م أمر قره بن شريك هدم الجامع واعادة بناؤه وتوسيعه واضاف له منبرا وجعل له محرابا مجوفا وهو اول من استحدث ذلك في هذا الجامع . وكان قره بن شريك قد زاد فيه من ناحيته الجنوبية والشرقية فاضاف اليه بعض دار عمرو والطريق الذي بين الجامع والدار واصبح للمسجد اربعة ابواب في شرقية واربعه في غربيه وثلاثة ابواب في شماليه . واستمر المسجد الجامع هذا بعد القرن الاول الهجرى بتوسيع وعناية مستمرين من قبل ولاة مصر حتى وصل إلى ماوصفه فيه القزويني في القرن السابع حيث يقول: «وهذا الجامع باق في زماننا كتب القرآن جميعه على الواح من الرخام الابيض بخط كوفي بين في حيطانه من اعلاها إلى اسفلها وجعل اعشار القرآن وآياته واعداد السور بالذهب واللازورد فيقرأ الانسان جميع القرآن منها وهو قاعد» (١).

اما عن دار الامارة التي شيدها عمرو بن العاص شرقي المسجد فيبدو انها لم تدم طويلا فقد اضيفت إلى المسجد عام ٩٢هـ / ٧١١م في عهد ولاية قره بن شريك ويبدوان الولاة قد اتخذوا لامارتهم دارا غيرها قبل ذلك حيث اقام عبد العزيز بن مروان عام ٧٩ هـ / ٦٩٨م في الدار المعروفة بدار الذهب (٢) .

---

(١) القزويني، ص ٢٣٦– ٢٣٧

(٢) المقريزي ، جـ٢ ص ٢٤٨

القيروان : —

القيروان من اقدم وابرز المدن التي شيدها العرب في المغرب العربي . ولا تختلف في اسباب بنائها عن المدن الثلاث الاولى فقد كانت هناك حاجة لمعسكر تنطلق منه الجيوش لحماية الانتصارات التي حققها العرب في تلك البقاع فبعد ان حرر عقبة بن نافع جزء من المغرب جمع اصحابه وقال: « ان اهل هذه البلدة قوم لاخلق لهم اذا عضهم السيف اسلموا واذا رجع المسلمون عنهم اعادوا إلى عادتهم ودينهم ولست ارى نزول المسلحين من اظهرهم رأيا وقد رأيت ان ابني ههنا مدينة يسكنها المسلمون فاستصوبوا رأيه فجاؤا إلى موضع القيروان وهي في طرف البر .... وقال انما اخترت هذا الموضع لبعده من البحر لئلا تطرقها مراقب الروم فتهلكها وهي في وسط البلاد ثم امر اصحابه بالبناء » (١).

بدأ عقبة بن نافع ببناء القيروان عام ٥٠ هـ/٦٧٠م وانتهى من بنائهاعام ٥٥هـ /٦٧٥م (٢) وان استمرار بنائها خمس سنوات ليدل إلى انها لم تكن في البداية معسكرا مؤقتا كما هو الحال في البصرة بل انها شيدت وفق تخطيط معين وبمواد انشائية دائمية وكان بصحبة عقبة بن نافع عشرة الاف مقاتل (٣).

ان معلوماتنا عن تفاصيل تشييد القيروان لازالت محدودة الا أنه من المعروف ان كان هناك اهتماما بتشييد المسجد الجامع اول الامر والذي حافظ على موقعه ومحرابه حتى الوقت الحاضر . يذكر الحميري (٤)« كان عقبة بن نافع اول من اختط القيروان واقطع مساكنها ودورها للناس وبنى مسجدها»ويذكر الحموى (٥) فيقول: «ثم اختط — عقبة بن نافع — دار الامارة واختط الناس حوله ... واختط جامعها وعمر الناس المدينة ».

لايعرف الناس بالضبط ان كان للقيروان سور حين انشئت الا أن اعطاء مقاس محيطها وهو ثلاثة الاف باع وستمائة باع (٦) يشير إلى وجود نوع من الحماية بهذا المحيط ويورد

---

(١) الحموي ، ياقوت « معجم البلدان» ، (بيروت ، ١٩٥٧) جـ٤ ص ٤٢٠- ٤٢١

(٢) ابن الاثير ،الكامل جـ٣ ص ٢٣٤

(٣) الحميري ، محمد بن عبدالمنعم« الروض المعطار في خبر الاقطار» تحقيق احسان عباس (بيروت ، ١٩٧٥) ص ٤٨٦

(٤) الحميري، ص ٤٨٧

(٥) الحموي، جـ٤ ص ٤٢١

(٦) ابن الاثير ، الكامل جـ٣ ص ٢٣٤

البكرى (١) تحصينات القيروان فيقول: « وللقيروان من القديم سبع محارس اربعة ، خارجها وثلاثة داخلها وكان للقيروان في القديم سور طوب سعته عشرة اذرع بناه محمد بن الاشعث الخزاعي سنة ١٤٠هـ / وهدم ذلك السور عام ٢٠٩ هـ / ٨٢٤ م عقوبة لاهل القيروان من قبل زيادة الله بن ابراهيم وبنى ثانية عام ٤٤ هـ/ ١٠٥٢ م بمحيط قدره ٢٢ الف ذراع (٢) :

تطورت مدينة القيروان خلال القرون الاربعة الاولى للهجرة فاصبحت تتضمن مدينتي القيروان وصبره التي شيدت عام ٣٣٧هـ بجوار القيروان والتي اصبحت منزل الولاة إلى حين خرابها (٣):

ويبدو انه كان بمدينة القيروان اسواقاً متطورة نقلت إلى صبره التي عرفت فيما بعد بالمنصورية ، فقد« كان سماط سوق القيروان قبل نقله إلى المنصورية متصلا من باب ابي الربيع إلى الجامع ميلان ومن الجامع إلى باب تونس ثلثاً ميل وكان سطحاً متصلا فيه جميع المتاجر والصناعات وكان امر بترتيبه هكذا هشام بن عبدالملك» (٤) :

كما قيل « ان في القيروان خلال القرن الخامس الهجري ثمانية واربعون حماما » (٥)

أما المسجد ودار الامارة في القيروان فيجمع المؤرخون ان بناء المسجد الجامع كان مصاحباً لبناء المدينة يذكر ابن الاثير«ان عقبة بن نافع امر ببناء المدينة فبنيت وبنى المسجد الجامع وبنى الناس مساجدهم ومساكنهم » (٦) «ويورد الحميرى ان عقبة بن نافع كان اول من اختط القيروان واقطع مساكنها ودورها للناس وبنى مسجدها »(٧).

ويعتقد ان جامع القيروان ، كغيره من جوامع مدن القرن الاول الهجرى ، كان اول ماختط في المدينة (٨). وقد استمر بناؤه خمس سنوات وقد جدد المسجد منذ ذلك الحين

---

(١) البكري، ابو عبيد « المغرب في ذكر بلاد افريقيا والمغرب » ، تحقيق دي سيلان ، الجزائر ١٨٥٧) ص ٤٦

(٢) نفس المصدر ، ص٢٥

(٣) نفس المصدر ، ص٢٥

(٤) نفس المصدر ص ٢٥ —٢٦

(٥) نفس المصدر ، ص ٢٦

(٦) ابن الاثير / الكامل، ج٣ ص ٢٣٤

(٧) الحميري ص ٤٨٧

(٨) أحمد فكري« المسجد الجامع بالقيروان» ، (القاهرة ١٩٣٦) ص١٢

عده مرات فقد جدد ايام حسان بن النعمان سنة ٨٠هـ / ٦٩٤ل م حيث هدمه جميعه عدا محرابه واعاد بناءه (١) وفي خلافة هشام بن عبد الملك ضاق المسجد بالمصلين فزاد فيه عامله بشر بن صفوان زيادة كبيرة وبنى الصومعة التي نصب اساسها على الماء وجعل طولها ستون ذراعا وعرضها خمسة وعشرون ذراعا (٢) كان ذلك عام ١٠٥هـ / ٧٢٣م وكانت هناك زيادة اخرى في عهد ولاية يزيد بن حاتم (٣) سنة ١٥٥ هـ / ٧٧٢ م؛

ولما ولي زيادة الله بن ابراهيم بن الاغلب هدم الجامع كله واراد هدم المحراب إلا انه عدل عن ذلك لان واضعه عقبه بن نافع (٤) واعاد بناءه عام ٢٢١هـ/ ٨٣٦م ولعل آخر واهم الزيادات كانت على يد ابراهيم بن احمد بن الاغلب الذي زاد ببيت الصلاة من جهة الصحن واقام قبة وسط زيادته هذه قبالة المحراب عرفت بقبة البهو كما اضاف المجنبات الثلاثة المحيطة بالصحن (٥)؛

ويمكن ان نستنتج من هذه الزيادات ومن خلال وضع المسجد حاليا أن محراب عقبة ابن نافع مازال موضعه باقيا إلى اليوم رغم اكسائه ببلاطات من الرخام المخرم في عهد زيادة الله (٦)؛

يرى البعض ان مساحة مسجد القيروان حافظت على سعتها منذ عهد هشام بن عبد الملك وحتى اليوم (٧) ويرى آخرون (٨) ان المسجد اليوم يمثل نفس الابعاد والشكل للمسجد بعد زيادة الله بن الاغلب عام ٢٢١هـ /٨٣٦م. والقبة التي اصبحت في العصور الاسلامية المتأخرة سمة من سمات العمارة الاسلامية والمساجد بشكل خاص ،تظهر لاول مرة في مسجد القيروان . فقد كانت القباب تقترن بالقصور بشكل رئيس اذ نسمع عن قبة في الكوفة في قصر يعرف بقصر الطمار (٩) وقبه اخرى في قصر معاوية في دمشق تعرف بخضراء

---

(١) البكري / ص٢٢
(٢) المصدر السابق ص٢٣
(٣) نفس المصدر والصفحة
(٤) نفس المصدر والصفحة
(٥) المصدر السابق ص٢٤
(٦) احمد فكري/ المدخل إلى مساجد القاهرة ومدارسها » (القاهرة، ١٩٦١) ص٢٠٥
(٧) أحمد فكري/ المسجد الجامع بالقيروان »، ص٦٦
(٨) كرزويل ، المختصر ص ٢٥٨
(٩) اليعقوبي « تاريخ اليعقوبي » ، ج٢، ص ٢١ والقزويني ص ٢٥١

معاوية (١) وقبه اخرى في قصر الحجاج (٢) وغيرها من قباب القصور اما في مسجد القيروان فتظهر لاول مرة في المسجد قبتين ، قبة تغطي المربعة التي تتقدم المحراب وتعرف بقبة المحراب وقبة اخرى تغطي المربعة الاولى من بلاطة المحراب من جهة الصحن وتعرف بقبة البهو : وينتشر بعدها استخدام القبة في المساجد في مسجد قرطبة وبرزت بشكل واضح في مساجد العصر الفاطمي في مصر.

وقد تكون الصومعة التي شيدت في المسجد خلال العهد الاموى عام ١٠٥هـ/٧٢٣م النموذج التي تجسد هناك لصوامع الجامع الاموى بدمشق والذي انتشر بعد ذلك إلى شمال افريقيا والاندلس.

واسط : —

اسست مدينة واسط من قبل الحجاج بن يوسف الثقفي عامل الخليفة عبد الملك بن مروان على العراق ولا يختلف سبب بنائها عن اسباب بناء بقية مدن القرن الاول الهجرى . فقد قيل ان الحجاج اتخذها مقراً لجنده من اهل الشام الذين تقوم بهم سلطته ويرسخ سلطانه (٣) وقيل عن الحجاج انه قال : « اتخذ مدينة بين المصرين (الكوفة والبصرة) لأكون بالقرب منهما . اخاف ان يحدث في احدى المصرين حدث وانا في المصر الاخر (٤) :

ويبدو ان واسط تمثل مرحلة متطورة في انشاء المدن العربية . اذ انها شيدت وفق تخطيط مسبق روعي فيه تطور الحياة المدنية لدى العرب خلال هذه الفترة فقد كانت محاطة بسورين وخندق يتوسطها القصر والمسجد الجامع يذكر الواسطي ان الحجاج بنى القصر والمسجد والسورين وحفر الخندق ..... وانزل اصحاب الطعام والبزازين والصيارفة والعطارين عن يمين السوق إلى درب الخرازين وانزل البقالين واصحاب السقط واصحاب الفاكهة في قبلة السوق وإلى درب الخرازين وانزل الخرازين والروزجاريين والصناع من درب الخرازين وعن يسار السوق إلى دجلة وقطع لاهل كل تجارة قطعة لايخالطهم غيرهم وامر ان يكون مع اهل كل قطعة صبر في وجعل لقصره اربعة ابواب عرض كل طريق من ابوابه ثمانون ذراعا .. وعقد الجسر» (٥) :

---

(١) ابن الفقيه« مختصر كتاب البلد » ص ١٠٨– ١٠٩

(٢) ابن رستة، أبو علي احمد بن عمر الاعلاق النفيسة » (ليدن ١٨٩١) ص ١٨٧

(٣) الطبري ١ جـ٦ ص ٣٨٤

(٤) الواسطي / اسلم بن سهل الرزاز « تاريخ واسط (بغداد ، ١٩٦٧) ص٤٣

(٥) نفس المصدر ص ٤٣ – ٤٤

وتتجسد بانشاء واسط فكرة اولوية دار الامارة على المسجد لاول مرة تلك الفكرة او الظاهرة التي نلاحظها بشكل اوضح في بناء بغداد وسامراء في القرون التالية : ولعل ذلك يرجع إلى اتساع وتشعب الامور الادارية : بحيث ضاق عنها المسجد فتركزت الامور السياسية والدينية في القصر ومباني اخرى وبقيت وظيفة المسجد للعبادة والدراسة فقط. حيث اصبح القصر هو الذي يمثل مركز تخطيط المدينة ومنه تتفرع الشوارع كما زاد حجمه عن حجم لمسجد اذ بلغ حجم القصر اربعمائة ذراع في مثلها .في حين كان حجم المسجد مائتا ذراع في مثلها (١) هذا وقد خصص الحجاج واسط فيما يبدو لسكن العرب حيث امر الحجاج حين فرغ من بناء المدينة بإخراج كل نبطي منها لانهم مفسدة فلما مات دخلوها (٢) ويحدد معظم المؤرخين سنة ٨٣ هـ للبدء ببناء المدينة (٣) اما ياقوت (٤) فيحدد تاريخ البناء سنة ٨٤ هـ في حين يختلف الواسطي مؤرخ المدينة الذي يعتبر اقرب إلى احداثها من غيره فيحدد تاريخ البناء بسنة ٧٥هـ / ٦٩٤ م والفراغ سنة ٧٨ هـ / ٦٩٧م (٥) :

اتخذت واسط مقراً لولاة العراق بعد موت الحجاج ودفنه فيها . وحافظت على مركزها الاقتصادى والثقافي حتى بعد انتقال الخلافة إلى بغداد فأنشئ فيها عام ٢٦١هـ / ٨٧٤م مسجدا جامعاً في شطرها الشرقي واستمرت فيها اعمال العمران حتى العصر الالخاني الا انها هجرت اثر تحول دجلة عن مجراه في القرن الثاني عشر للهجرة (٦).

التنقيب في واسط —

بدأت بعثة عراقية بالتنقيب في موقع مدينة واسط عام ١٩٣٦م وانحصرت اعمالها بشكل رئيس في موقع المسجد من القصر . فقد كشف عن اربعة مساجد يعلو بعضها الاخر اولها واقدمها يرجع إلى عهد الحجاج ويرجع تاريخ آخر هذه المساجد إلى العهد الالخاني وظهر ان جامع الحجاج وقصره يتفقان مع الابعاد التي اوردها كل من الواسطي وياقوت اعلاه فكان الجامع مربعاً طول ضلعه من الخارج ١٠٤م اى ٢٠٠ × ٢٠٠ ذراع وطول ضلع القصر من الخارج ٢٠٪ ٢٠٣ م (٧) اى ٤٠٠ × ٤٠٠ ذراع ٥

(١) الحموي ، ياقوت ،« معجم البلدان»، (بيروت ١٩٥٧) جـ٤ ص ٣٠٥
(٢) الحموي ، جـ٥ ص ٣٠٥
(٣) الطبري ، جـ٦ ، ص ٣٨٣ والبلاذري، ص ٢٨٨
٤) الحموي ، جـ٥ ص ٣٤٨ (٥) الواسطي ،ص ٤٣
(٦) فؤاد سفر ،«واسط» ، (القاهرة ١٩٥٢) ص ٣ — ٤
(٧) نفس المصدر ص ٢٩

ويشابه تخطيط الجامع إلى حد بعيد تخطيط كل من جامع الكوفة وجامع البصرة اذ انه مربع يحتوى بيت الصلاة فيه على تسعة عشر بلاطة تتعامد مع جدار القبلة وخمسة اورقة توازى ذلك الجدار ويحيط بالصحن من جهاته الثلاثة الاخرى ثلاث بلاطات الشمالية ذات تسعة عشر رواقاً وتحتوى كل من الشرقية والغربية على ثلاثة عشر رواقاً(١)

وكان سقف الجامع محمولا على اساطين من قطع مجربة رملية منحوته وموضوعة قطعة فوق قطعة مفرغ فيها الرصاص ومسكوكة بسفود حديد يخترق جميعها على طول الاسطوانة (٢). وقد لاحظنا مثل هذا الاسلوب ايضاً في مسجدى الكوفة والبصرة .

اما القصر بقبته الخضراء التي كانت تتوسطه فكان يقوم على طول الجانب الجنوبي للمسجد فقد بقى ماثلا حتى عام ٤٠٠هـ / ١٠٠٩م (٣) .

الخـــلاصة —

نستخلص مما تقدم ان المدن العربية خلال القرن الاول الهجرى شيدت لاغراض عسكرية صرفة روعي في المدن الثلاثة الاول منها سهولة الاتصال بمركز ادارة الدولة الاسلامية ، المدنية المنورة» . كما كان توزيع القبائل العربية فيها اساسا لتخطيطها الذى تركز حول المسجد الجامع ومن ثم تطورت الاسواق . اما المدينتان المتأخرتان وهما القيروان وواسط فقد شيدتا في فترة استقر بها العرب في الاراضي المحررة فكانت هناك حاجة إلى تنظيم الاسواق ومحال الصناعات فكانت لكل صناعة وحرفة سوقاً خاصة .

وضع المسجد ودار الامارة باعتبارها مركز الادارة السياسية للمدينة في الوسط في جميع مدن القرن الاولى وكان للمسجد الاولوية في جميع هذه المدن عدا واسط التي كانت الاولوية فيها للقصر بوضعه ومساحته وقد اتبعت تلك القاعدة ، في المدن التي شيدت بعد واسط في بغداد وسامراء. وكانت المساجد متشابهة في هذه المدن خاصة العراقية منها في تخطيطها وبنائها.

ولقد اثرت هذه المدن الجديدة على المدن القديمة وخاصة في العراق اذ اعقب انشاء كل منها هجرة من المدن القديمة فتنامت هذه المدن على حساب المدن القديمة فكان في القرن الثالث خمس مدن كبيرة في العراق هي سامراء وبغداد والكوفة والبصرة وواسط اما عواصمه القديمة طيسفون والحيرة . فقد اضمحلت إلى مستوطنات صغيرة .

---

(١) نفس المصدر ص ٢٥

(٢) فؤاد سفر ، ص٢٤

(٣) نفس المصدر ، ص ٤٣

- المراجـع -

البلاذري ، محمد بن يحيى «فتوح البلدان» (القاهرة ١٩٥٩)

ابن الأثير ، عز الدين ، «الكامل في التاريخ » (القاهرة ١٣٠١هـ)

الطبري ، محمد بن جرير ، «تاريخ الرسل والملوك» (القاهرة ١٩٦٢)

اليعقوبي ، أحمد بن راضح ، «كتاب البلدان» (ليدن ١٩٠٨)

القزويني ، زكريا بن محمد بن محمود ، «آثار البلاد وأخبار العباد» (بيروت ، ١٩٦٠)

المقريزي ، تقي الدين أبي العباس أحمد بن علي «الخطط المقريزية» (بغـداد)

الحموي ، ياقوت ، «معجم البلدان » (بيروت ١٩٥٧)

الحميري ، محمد بن عبد المنعم ، «الروض المعطار في خبر الأقطار» (بيروت ١٩٧٥)

البكري ، أبو عبيد ، «المغرب في ذكر بلاد أفريقيا والمغرب (الجزائر ١٨٥٧)

ابن جبير ، محمد بن أحمد ، «رحلة ابن جبير» (القاهرة المطبعة الأولى)

ابن المتقيه ، «مختصر كتاب البلدان» ،

ابن رسته ، أبو علي أحمد بن عمر «الأخلاق النفيسة» (ليدن ١٨٩١)

الواسطي ، أسلم بن سهل الرزاز «تاريخ واسط» (بغداد ، ١٩٦٧

K.A.C. Creswell, "Ashort Account of Early Muslim Architecture" (Harmondsworth 1958)

أحمد فكري : «مساجد القاهرة ومدارسها ، المدخل، » (القاهرة ١٩٦١)

أحمد فكري : «المسجد الجامع بالقيروان» (القاهرة ١٩٣٦)

فؤاد سفر : «واسط» (القاهرة ١٩٥٢)